متى وكيف صار «بهاء الدين العاملي أستاذي ومرشدي»

أ. د. دلال عبّاس

بدأت الحكايةُ في أواخر العام 1976 م [1355 ش]؛ سافرنا إلى طهران في حمأة الحربِ الداخليّة في لبنان، والاعتداءاتِ الإسرائيليّة على الجنوبِ حيث نُقيم، زوجي لعمل هناك نَدَبته إليه الشركة الألمانيّة التي كان يعمل فيها مهندسًا، وأنا بنيّة التسجيل للدكتوراه.

بعد أشهر وكنتُ لا أزال أبحث عن موضوع، زارنا في المنزل ثلاثةُ طلّاب لبنانيون ترافقهم صديقتهم الإصفهانيّة، قالت إنها تسكن في الحي الذي كان يعيش فيه الشيخ البهائيّ [بهاء الدين العامليّ]، وحكت عن الشيخ حكايات تشبه الأساطير ،عن الدهان والمئذنتين المتحركتين، والمسجد الذي يتردّد صدى صوت الخطيب في جنباته، وأنا حتى تلك اللحظة، أي منذ ثلاثة وأربعين عامًا لم أكن أعرف عنه شيئًا، لا من المدرسة ولا من الجامعة أو أيّ مكانٍ آخر...

حكت الشابّة كثيرًا، ولمّا غادروا لمعت في ذهني فكرة أن يكون "بهاء الدين العامليّ" موضوع أطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب المقارن؛ وبدأت المصادر والمراجع تتثالُ عليّ من دون بحث ومن دون عناء، [وتلك قضية أخرى، بعضها مدوٌّن في السيرة التي لن تُنشر الآن]، وبدأ التحضير والتقميش، والعمل على تحسين مستوى لغتي الفارسيّة التي كنت قد درستُ قواعدَها في مرحلة الإجازة في الجامعة اللبنانيّة، وبدأت بترجمة النصوص التاريخيّة المتعلّقة بالعصر الصفويّ وبهجرة العلماء العامليّين إلى إيران، واكتشفت أمورًا عن الصراع العثمانيّ-الصفويّ، جعلتني أغوص في البحث التاريخيّ الذي بلغ مئتي صفحة، [لا تزال تنتظر الوقت المناسب للنشر] كثّفتها في ما بعد وجعلتها مقدّمة لدراسة الشيخ البهائيّ.

وشاءت الأقدار في تلك الحقبة أن أتابع وأعرف من قربٍ ما كان يجري في إيران في تلك المرحلة التاريخيّة المفصليّة قُبيل انتصار الثورة التي عَرَفتُ من قربٍ مقدماتِها وتفاصيلَها كلّها، وعدنا إلى لبنان وإلى الجنوب المعرّض باستمرار للاعتداءات الإسرائيليّة؛ في لبنان قرّرت أن أنجز كتابًا عن الشيخ البهائيّ، موادُّه كلّها موجودة في متناولي، أربع سنوات من البحث والكتابة، ثم صدر في العام 1985 قرار استحداث مرحلة الدكتوراه في الجامعة اللبنانيّة، فحوّلت الكتاب أطروحةً بإشراف أستاذي العلّامة المرحوم الدكتور أحمد لواساني.

من أجل الشيخ البهائيّ وبواسطته درست الفقه وعرفت الفرقَ بين التيار الإجتهادي والتيار الأخباري، ودرست كتب الحديث عند الفرق الاسلاميّة مستخدمةً منهجه في غربلة الأحاديث ،وحفظت الأحاديث الأربعين التي اختارها في أربعينه، أو أوردها في كشكوله، وكان الشيخ البهائيّ الواسطة بيني وبين العلماء الإجتهاديين الذين سبقوه، ولأنّه أستاذ الفيض الكاشاني والملّا صدرا قرأتُهما.

هالني أن تكون **صمديته** في النحو أول كتابٍ في النحو الميسّر؛ كان البهائيّ ،أيضًا، الواسطة بيني وبين كبار الشعراء الإيرانيين الذين تأثّر بهم، وبزّهم في بعض الأحايين . كتاباته هي التي دفعتني منذ أربعة عقود ونيف لفهم ما يعنيه "**الظاهر والباطن**" في الدين، ولتتكوّن لديّ منظومةٌ فكريّةٌ على المستويات السياسيّة

والاجتماعيّة والفرديّة، مبنيّة على مفهوم **العدالة**، وعلى التمييز بين الظاهر والباطن ومعرفة "أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون".

غُصت في موضوع الظاهر والباطن والتصوّف والعرفان، وبتُ أؤمن بما كان قد قاله هو في مقدمة أحد مثنويّاته: "من تفقّه ولم يتصوّف فقد تفيْقه ومن تصوّف ولم يتفقّه فقد تزندَق ومن جمع بينهما فقد تحقّق" .

شعره العربيّ الأرقى من شعر معاصريه من الأمصار العربيّة الأخرى جعلني أتنبّه إلى شعر العامليين في عصره وبعد عصره، في المرحلة التي سُميّت "عصر الانحطاط"، لأجدَ أنّ مؤرخي الأدب العربيّ لم يذكروا أحدًا منهم، حتى اللبنانيين الذين كتبوا مؤلفات عن الشعر العربي في عصر الانحطاط وفي عصر النهضة، لم يذكروا أحدًا من شعراء جبل عامل الذين أثّروا في شعر عصر النهضة العربيّ...

لا يزال بهاء الدين العامليّ حتى الآن بالنسبة إليّ أستاذًا ومعلّمًا ومثالاً يُحتذى به، وسعيدةٌ كوْنَ دراستي عنه فتحت أمام الباحثين الآفاق لدراسة نقاطٍ في نتاجه، كنتُ قد أوردتها مجملةً، فانطلقوا من هذا المُجمل إلى دراسات أكثر تفصيلاً .

دلال عباس

النبطية ، آب- 2019.